• المحور الثاني: منهج الحوار وضوابطه ووسائله:

١ - آليات الحـــــوار :

د.أحمد محمد هليل (قاضي القضاة وإمام الحضرة الهاشمية).

٢ - آداب الحوار وضوابطه:

د. ماجد محمد الماجد (عضو هيئة التدريس في جامعة الملك سعود - الرياض).

٣- إشكاليات الحوار ومحظوراته:

د. منقذ بن محمود السقار (باحث في رابطة العالم الإسلامي).

منهج الحوار وضوابطه

د. أحمد محمد هليل
قاضي القضاة بالأردن
وإمام الحضرة الهاشمية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على النبي المبعوث رحمة للخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن الاختلاف سنة كونية، منحت الحياة ألواناً مختلفة من نتائج الأفكار، وأنماطاً متعددة من آثار السلوك والأفعال، وجعلت التعدد والتباين بين الناس في رؤاهم ونظرتهم للأشياء أصلاً من الأصول التي بني عليها فكر الأمة الممتاز بالتنوع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس: ١٩).

وانطلاقاً من هذه الحقيقة؛ كان لابد من همزة وصل تشكل ملتقى بين الفرقاء والمتخالفين، لتحقيق ورسم رؤية مشتركة تصب في بناء الحياة، وتسهم في تشكيل صورة الإنسانية على أحسن وجه.

ولما كان من الصعب بلورة هذه الرؤية دون التقاء بين أطرافها، كان لا بد من الدعوة إلى مجمع مفتوح يتطرق لكافة قضايا وجوانب الخلاف الذي قد يظهر بين الأطراف، وبما أنه من المتوقع والمرتقب ظهور خلاف في الرأي بين أي طرفين -ولا يعني ذلك ضرورة ملك الحق والصواب لأحدهم دون الآخر- كان لا بد من وسيلة وآلية تضبط اللقاء في ذلك المجمع، بغرض الوصول إلى الحق من جهة، وإقامته على ساق من الحياد والموضوعية العلمية

من جهة أخرى، ووصولاً إلى حل النزاع بين الفرقاء، وإحقاقاً لوجهة واحدة في المسائل التي لا يحتمل مثلها خلافاً.

من أجل ذلك كان الحوار، وكانت مناهجه وضوابطه، لتعطي الخلاف بين الفرقاء بُعداً إنسانياً، ولكي يوضع أيضاً في إطاره الطبيعي حتى لا يتحول فيما بعد إلى أداة دمار وبغضاء وكراهية.

والحوار المفتوح البناء يذيب الخلافات، ويذهب بأسبابها، ويستأصل بوادرها وسلبياتها من شأفتها، وفي المقابل فهو يزيد أيضاً من إيجابيات اللقاء بين المتخالفين، ويجعل الاختلاف الذي هو سنة كونية رحمةً من الله للأمة وتوسعة عليها.

ولقد كانت لنا وقفة في هذه الورقات البسيطة مع الحوار من حيث المناهج والأساسيات والضوابط، موجزاً القول في كل منها بحسب ما يقتضيه المقام.

وما من شك أن عقد هذا المؤتمر للوقوف على أساسيات الحوار ومناهجه خطوة حكيمة من رابطة العالم الإسلامي، ومبادرة طيبة تسجل لها ولأمينها العام معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مقدراً للرابطة جهودها الطيبة والمباركة في خدمة الإسلام، ومتمنياً لها مزيداً من التقدم والازدهار برعاية صاحب المعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وبجهد الأخوة الأفاضل في الأمانة العامة للرابطة.

سائلاً الله العظيم أن أكون قد هديت الصواب في عرض المادة وتقديمها، فإن كان ذلك فالفضل والمنة لله، وإن كان الزلل والخطأ، فالله يغفر لنا ما فرطنا، ونسأله ضارعين أن لا يحرمنا أجر محاولة البحث عن الصواب.

والحمد لله رب العالمين

منهج الحــوار

قد نرى بعض الفرقاء كلما أرادوا ائتلافاً تفرقوا، وحيثما جلسوا لتسوية خلاف تشتتوا وتنازعوا، ولا يرجع ذلك إلى نوعية الأخلاق القائمة على الرفض والنبذ لهذا الفريق أو ذاك فقط، وإنما يرجع قبل ذلك وبعده إلى عدم الإدراك لحقيقة علم الحوار وفن المحاورة.

الأمر الذي يجعل المتقاربين في الأهداف والأفكار في خلافٍ دائم، ونزاع مستمر، وفُرقة مقيتة.

ولكي لا نسقط في فتنة الفُرقة؛ لابد أن نرتفع بحواراتنا إلى مستوى تصبح فيه الحوارات علماً نتلقاه، وفناً نتدرب على أساليبه ونمارسه للوصول إلى أهدافنا النافعة، بعيداً عن الارتجال والتسرع وشخصنة العمل العلمي.

ولكي يتسنى لنا ذلك، لابد من الوقوف على قواعد منهج الحوار الصحيحة، التي تُحكم أطراف الحوار وتضبطه، وتبين أساليبه التي تخدمه، وتتعرف على عوائقه التي توقفه، حتى يكون كلامنا باعتدال، وجدالنا بمنطق، وحوارنا باتزان.

وهاكم طائفة من تلك القواعد:

١- الإقرار بالحرية الفكرية لدى المتحاورين، أو بمعنى آخر: امتلاك الحرية الفكرية:

لابد لكل حوار أن يمتلك أطرافه الحرية الفكرية، فمن غير المقبول ألبتة أن يقيد فكر المحاور، فهذا فضلاً عن كونه مصادرة لرأي ارتآه صاحبه، فهو أيضا مانع من الوصول إلى الحق.

أما مصادرة رأي المخالف بحجة الخطأ، فهذا تجن على فكرة الحوار، ونقض لها من أساسها، إذ إن مجالس الحوار أماكن يتجلى فيها الخطأ من الصواب، والحكم على الخصم بالخطأ قبل تلك المجالس تحكم، وهو عندئذ أشبه بمحاكمة ليس فيها سماع للشاهد ولا الجاني.

وتقييد فكر المحاور سلب لأداة الحوار عنده، فهو له كالقلم والمدواة للكاتب، أو الآلة لصاحب الحرفة، في حين أن امتلاك المحاور للحرية الفكرية مولد لثقته بشخصيته العلمية المستقلة، فلا ينسحق أمام الآخر؛ لما يحس به من العظمة والقوة التي يمتلكها الآخر، فتتضاءل إزاء ذاك ثقته بنفسه وبالتالي بفكره وقابليته لأن يكون طرفاً للحوار، فيتجّمد ويتحول إلى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر، الأمر الذي يفقد الحوار قيمته العلمية، ويشكك في نتائجه المتوصل إليها.

لذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحقق ذلك ويوفره لمحاوريه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال في موضع آخر: ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وضمن للجميع حريتهم الفكرية، بقوله: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦).

٢- مناقشة منهج التفكير:

فإذا امتلك أطراف الحوار الحرية الكاملة، فأول ما يُناقش فيه هو المنهج الفكري -قبل المناقشة في جزئيات الأفكار وتفاصيلها- في محاولة لتعريف

الخصم بالحقيقة المقصودة من الحوار، والتي قد غفل عنها من وجهة نظرنا؛ وبيان ذلك أن القضايا الفكرية لا ترتبط بالثقافة الشخصية للمحاور فحسب، أو الطبيعة العلمية له، وإنما هي مولدة عنده من منهج دأب على تبنيه والسير عليه، فلكلٍ مجاله، ولكل أصوله المنهجية التي ينطلق منها، ويمتد إليها.

وحصر الحوار بعد ذلك في المفردات التفصيلية ظلم وغبن، إذ إن كل فكرة متوصل إليها بدراسة منهجية، وإثبات الحق عن طريق كشف الخلل في المنهجية أولى منه في تصحيح الفكر خلال القضايا التفصيلية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقال أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٤).

ومن هذا تعرف أن غرض القرآن مناقشة الكفار في منهج الاتباع، لا في عكوفهم على الأصنام، ولا على غيره مما كانوا عليه من بدع وضلالات، إذ أن كل ذلك مبني على الاتباع.

٣- الابتعاد عن الأجواء الانفعالية، والتزام الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة:

من عوامل نجاح الحوار أن يتم في الأجواء الهادئة؛ ليبتعد التفكير فيها عن الأجواء الانفعالية التي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، وتقصيه عن الاعتدال الذي يقود إلى الإنصاف والإذعان، إذ إنه عند

الانفعال قد يخضع للجو الاجتماعي، ويستسلم لا شعورياً للمحيط العام، الأمر الذي يفقده استقلاله الفكري.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

فالقرآن الكريم عدَّ اتهام النبي ﷺ بالجنون خاضعاً للجو الانفعالي العدائي لخصومه؛ لذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو والتفكير بانفراد وهدوء.

وفي ذات الوقت أمر المحاور والمجادل أن يلزم الحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

٤- التسليم بإمكانية صواب الخصم:

ولا بد لانطلاق الحوار من التسليم الجدلي بأنَّ الخصم قد يكون على حق، أما إذا كان المتحاوران يعتقد كل منهما صواب نفسه يقيناً، وغلط صاحبه يقيناً أيضا، دون إمكان لأن يكون الصواب عند غيره، فهذه مقدمات لمراء منهي عنه، لا لحوار يصل بأطرافه إلى الصواب.

ولله در الشافعي عندما قال: "كلامي صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيري خطأ يحتمل الصواب"، فباحتمال وجود الحق عند الطرفين يكون الحوار، ويؤتي أكله عندئذ من ثمار نافعة يفيد منها الجميع.

وها هو القرآن بعد مناقشة طويلة في الأدلة على وحدانية الله تعالى، تأتي هذه الآية من سورة سبأ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)،

فطرفا الحوار سواء في الهداية أو الضلال، ثم يضيف على الفور في تنازل كبير بغية حمل الطرف الآخر على القبول بالحوار، فقال تعالى: ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ: ٢٥)، فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو الصواب، ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل، ليقرر في النهاية أن الحكم النهائي لله تعالى، قال جل ذكره: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: ٢٦).

٥- التعهد والالتزام باتباع الحق:

هذا ولا يكفي مجرد التسليم الجدلي بإمكانية صواب الخصم، بل لا بد من التعهد والالتزام باتباع الحق إن ظهر على يديه، حتى ولو كان التعهد باتباع ما هو باطل أو خرافة إذا افتُرض أنه ثبت وتبين أنه حق، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١).

٦- التركيز على نقاط الاتفاق

وهذا الأمر وإن كان عاماً في كل الحوارات، إلا أنه أدخل في الحوار بين الفرق الإسلامية المختلفة، بل ويدخل فيه الحوار بينها دخولاً أولياً.

إن الذي ينبغي إقراره في هذا المقام أن هناك قواسم مشتركة بين الناس على اختلاف توجهاتهم وأديانهم، وجوامع تأتلف عليها كلمة المتحاورين مهما اختلفت أطيافهم، أو تعددت منابتهم وأصولهم، وإن تلك القواسم والجوامع ينبغي أن تكون محل احترام من الجميع، أما مسائل الخلاف فهي أمر مقدر ومعتبر.

إن الذي نوده ونتمناه أن يكون منطلق الحوارات بين مختلف الفرقاء من

مجامع الاتفاق، وأن يكون إليها الاحتكام عند التخالف والتناكر.

أما بالنسبة للمسلمين فهم متفقون رغم اختلافهم في ثلاثة أمور:

- **أولاها**: الاتفاق على الإيمان بأصول العقائد المعروفة.

- **ثانيها**: الاتفاق على الإيمان بالقرآن الكريم.

- **وثالثها**: الاتفاق على الالتزام بأركان الإسلام وشعائره الكبرى من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت.

وإن أي تحاور بين المسلمين ينبغي أن يكون منطلقاً من تلك النقاط ومحتكماً إليها.

٧- التحاور في المختلف فيه:

ينبغي التركيز في الحوار على الجوانب العملية التي يقصد بها أمران:

الأول: ما يتعلق بالمواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فنلتقي للحوار في ما اختلفنا فيه لنجتمع آخراً حول هدف واحد، ونصدر عن موقف واحد، ونواجه المخططات المعادية بخطة وإستراتيجية واحدة.

الثاني: ما يتعلق بالأحكام الفقهية العملية، فالحوار فيها أيسر وأقرب منالاً من الأمور العقائدية والكلامية.

ومثل هذه المحاورات تكون مجدية ونافعة، فربما أدى تلاقح الأفكار وتفاعل الآراء إلى جلاء نقطة كانت غامضة، أو تقريب مسافة كانت بعيدة، أو الخروج بتفسير يقبله الطرفان، وبخاصة إذا كان الحوار جاداً ومخلصاً في طلب الحقيقة بعيداً عن التعصب والانغلاق.

٨- الانضباط بالقواعد المنطقية في مناقشة موضع الاختلاف:

فإذا تم الالتزام بهذه الأسس فإنَّ الحوار ينطلق معتمداً على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وما أكثر ما ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، وقال تعالى مرشداً إلى اعتماد العلم والحجة في الحوار: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج: ٨، لقمان: ٢٠)، وقال في موضع آخر: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٦)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر: ٥٦)، وقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الصافات: ١٥٦ - ١٥٧).

وفي اتباع اللين والحكمة والموعظة الحسنة يأمر الله موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٢ - ٤٤)، ويأمر باتباع الحكمة في الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٣ - ٣٤)، وتأكيداً لهذا المنهج ينهى الله المؤمنين عن اتباع أساليب السفهاء،

(١) البقرة: ١١١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦٤، القصص: ٧٥.

ومجاراتهم في السبِّ والتسفيه لمعتقدات الآخر، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

٩- ختم الحوار بهدوء مهما كانت النتائج:

إذا سار الحوار جاداً وفق هذا المنهج من قبل جميع الأطراف؛ فلا بد أن يصلوا جميعاً إلى ما التزموا به في بداية الحوار من الرجوع إلى الحق وتأييد الصواب، فإذا رفض المحاور الحجج العقلية كأن لم يقتنع بها؛ فإنه بذلك يمارس حقاً أصيلاً كَفَلَه له رب العزة، وسيكون مسئولاً عن ذلك أمام الله تعالى.

وفي هذه الحالة ينتهي الحوار بهدوء كما بدأ دون حاجة إلى التوتر والانفعال، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥).

١٠- التأكيد على استقلالية كل من المتحاورين ومسؤولية عن فكره:

قبل الانفصال بين المتحاورين يتم التأكيد على استقلالية ومسئوليته كل متحاور عن نفسه ومصيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٤ - ١٣٥).

وعلى لسان شعيب قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود: ٩٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي

وَإِن اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: ٥٠)، وقال أيضاً: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (الزمر: ٣٩-٤٠).

وبهذا يقرُّ أنها مسؤولية فردية لا تداخل فيها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١)، وقال أيضاً: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: ٢٥-٢٦).

١١- الإشهاد على المبدأ وعدم تتبع الأخطاء الناتجة عن الانفعال أثناء الحوار:

ينبغي للمتحاور في آخر الحوار أن يلتزم قوله ويتمسك به، لا سيما إذا كان الحق معه والحجة له، كما يشهد المتحاورين على مبدئه، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ولا حاجة في أن يُتَابَعَ الخصم على ما بدر منه من إساءات في الحوار، وليكن العفو والصبر أساساً وخلقاً في التعامل مع الجاهلين، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، فإن التزم الخصم التزم، وإلا فللمحق قول الحق تعالى ذكره: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل: ١٠).

هكذا يرشد المنهج القرآني في الحوار، إلى إنهائه بمهمة وأداء رسالة يبقى أثرها في الضمير إن لم يظهر أثرها في الفكر، إنه أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته واستقلاليته، ويقوده إلى موقع المسؤولية ليتحرك الجميع في إطارها وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال.

وللناظر في حوارات القرآن مع المخالفين، أو في هدي النبي ﷺ مع المشركين، أكبر مندوحة وأوسع مرجع يعينه على الوقوف على مناهج الحوار الصحيحة، وبالصور العملية.

أساسيات ومباديء الحوار الهادف

وكما أن للحوار مناهج ينبغي للمتحاور التحقق بها، فإن لها كذلك أساسيات ينبغي التزامها من كلا المتحاورين، حتى يؤتي الحوار أكله، ويثمر بما كان منتظرا منه.

أما أسس الحوار، فهي على ما يلي:

الأساس الأول: أن نحاور الآخر بقلب مفتوح:

لكي ندخل إلى قلوب الآخرين، وإلى عقولهم لابد أن تكون قلوبنا مفتوحة مملوءة بالحب، والرحمة واللين والشفافية، وأما القلوب المنغلقة، المملوءة بالكراهية والحقد والقسوة فإنها لا تملك القدرة على أن تفتح قلوب الآخرين وأن تفتح عقولهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٣ - ٤٤)، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

وقد أخرج الإمام البخاري ومسلم عن عبد الله قال: " كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٢١٨)، (٦٤١٧)، ومسلم برقم: (٣٣٤٧).

ومما جاء في الأثر أن ابن أبي العوجاء دخل على الإمام الصادق وتحدث معه بلغة فيها استهزاء وسخرية بالحج والطواف حول الكعبة، ومما جاء في حديثه: "إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر...".

فلم تحدث هذه الكلمات -رغم ما فيها من تهكم واستخفاف- شيئاً من الانفعال والتشنج عند الإمام الصادق، بل واجه الموقف بقلب يحمل الشفقة والرحمة على هذا الإنسان الذي استهواه الضلال واستعذبه الباطل وتاه عن الطريق، فخاطبه بلغة هادئة بصيرة، ليفتح عقله وقلبه على الحق، قائلا: "هذا بيت استعبد الله به عباده، ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجتمع العظمة والجلال".

الأساس الثاني: أن لا نتهم دوافع الآخر(١):

الدوافع مسألة قلبية لا يمكن اكتشافها بسهولة، قد أحاور الآخر في أفكاره وآرائه، وقد تقودني قناعتي إلى رفض تلك الأفكار والآراء وإلى نقدها وإلى تخطئتها، ولكن أن أتهم الدوافع والنوايا فموضوع عسير جداً.

إذ إن الصحة والخطأ تخضعان لشروط موضوعية يمكن التحقق منها واكتشافها، مما يسمح لنا أن نحاسب الرأي والفكرة، وأما الدوافع المنغرسة في القلوب فالوصول إليها يحتاج إلى جهد كبير، فضلا عن كونه مستحيلاً إذا لم يبد الآخر شيئاً منها صراحة أو إشارة.

(١) وهو ما سماه الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه "مباديء في الحوار" بحسن الظن.

ومن القواعد الطيبة التي دعا الإسلام إليها: "احمل فعل أخيك على أحسنه"، ومما جاء في الآثار: "احمل فعل أخيك على سبعين محملاً"، وقد ورد عن الإمام الشافعي أنه في مرضه وضعفه قال له أحد محبيه: "يا إمام؛ قوى الله ضعفك"، فأجابه الشافعي قائلاً: "ويحك، لو قوى ضعفي لقتلني"، فأجاب المحب: "والله لم أقصد هذا يا إمام"، فرد الشافعي مقراً قاعدة تقصد في العفو وحسن الظن: "والله لو قصدتَ لقلتُ: إنك لم تقصد".

وقد قيل: "التمس لأخيك سبعين عذراً، فإن لم تجد، فقل إنه معذور"، ومن روائع ما كتب ابن عطاء الله السكندري: "من لا يرى محسناً لا يحسن"، ويعني أن الذي لا يرى إحسان الآخرين لا يحسن أبداً، إذ إنه مجبول على تتبع الزلات والعورات، أما شأن المحسنين أنهم لا يرون إلا الحسنات.

وقد ورد عن ابن المقفع قوله: "من خفيت عليه معايبه، خفيت عليه محاسن الآخرين، فلا هو قوم نفسه ولا هو أفاد من غيره".

وما أحسن قول الشافعي:

لسانك لا تذكر به عورة امريء فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبدت إليك معايباً فصنها وقل يا عين للناس أعين

فلو شاهدت إنساناً مؤمناً يصافح امرأة فقل: إنها أمه أو أخته أو زوجته، أو لعلها إحدى محارمه، ولا يصح أن ينساق ذهنك إلى اتهامه بمصافحة امرأة أجنبية.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: "ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت

من أخيك سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً".

وفي قول آخر: "من عرف من أخيه وثيقة دين، وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال".

إلا أن مشكلة بعض الناس في أيامنا هذه أنهم يفتشون دائماً عن أسوأ الاحتمالات في تفسير سلوك الآخرين وخصوصاً الذين يختلفون معهم، ربما يكون الاحتمال الأسوأ هو أبعد الاحتمالات، ولكنه يبقى هو الاحتمال الأقرب عند هذا البعض، لكونهم لا يملكون القدرة على أن يحسنوا الظن، ولا يفهمون محامل الخير في تفسير ما يصدر عن الآخرين.

على أن الإسلام يقيم العلاقة بين أبنائه على حسن الظن، ويحمل حال غيره على أحسن المحامل وإن كان يحتمل معنى آخر.

ولهذا ينبغي أن يكون أول ما نطرحه من طريقنا في الحوار -وخصوصاً بين الفرق الإسلامية- كي نقرب بين الأمة هو سوء الظن، وأن نغلب فضيلة حسن الظن فيما بيننا كما هو شأن أهل الإيمان، ولا يصح هنا أن نحْمل كل فعل حسن أو تصرف صالح يصدر عن المخالف على أنه من باب النفاق أو التقية أو المجاملة أو الخوف؛ لأن ذلك ضرب من سوء الظن لا مبرر له ولا داعي إليه.

وعلى الرغم من أن الدين يؤكد ضرورة التعاطي مع الآخر بعيداً عن سوء الظن وبعيداً عن اتهام النوايا والدوافع، فإن ذلك لا يعني أن يعيش المؤمنون درجة من "الاستغفال" في مواجهة "حالات الاختراق"، فنحن في زمن يخطط فيه أعداء الأديان من غير عقلاء الغرب من أجل أن يقحموا كل واقعنا

الديني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والأمني كما تخطط مؤسسات التغريب وقوى الفساد من أجل الدخول إلى عمق الأوساط الملتزمة والمحافظة، وتفرض مخططات الاختراق والاقتحام والدخول بتجنيد مجموعة من العناصر المتسترة تحت أقنعة متعددة، دينية وثقافية وسياسية، وتفرض هذه المخططات باعتماد شعارات تحمل الكثير من الإغراء، مما يجعلها قادرة على الاستقطاب والاحتواء.

فهل من الفطنة الإيمانية في ظل هذه المعطيات الموضوعية، وفي ظل مشروعات الاختراق أن نتعامل بحسن الظن مع كل المتحركات الدينية والثقافية والسياسية؟، لا أريد أن أقول: إن القاعدة التي يجب أن تحكمنا هي "الريبة والشك" في كل ما يتحرك حولنا على مختلف المستويات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية، ليس الأمر كذلك، فهناك مساحات كبيرة في واقعنا يجب أن تكون محكومة في الأصل لحسن الظن وحسن النوايا ما لم تتوافر الأدلة القاطعة على خلاف ذلك.

وتبقى مساحات أخرى في دائرة "الشك والريبة" مهما تسترت أو اتخذت لها مما له بريق شعارات أو دثارات.

الأساس الثالث: أن لا نلغي الآخر:

إن مقولة: "نحن على صواب مطلقاً، والآخر على خطأ مطلقاً"، مقولة تعقد مسارات الحوار، فضلاً عن كونها غير واقعية في كثير من الحالات.

إن إلغاء الآخر يضع الحوار أمام أبواب مغلقة، وتعقيدات صعبة، بل أمام بدايات متشنجة، والمتتبع للمنهج القرآني في الحوار يجده يضع المتحاورين

مهما كانت قناعاتهم في صف واحد، فالحقيقة في لغة الحوار ليست ملكاً لطرف دون آخر، والأطراف جميعها تشترك في رحلة البحث عن الحقيقة، ربما يكون أحد الأطراف واثقاً كل الوثوق أنه يملك الحقيقة، إلا أن منهج الحوار الموضوعي يفرض عليه أن يعتبر نفسه باحثاً عن الحقيقة ومتعاوناً مع الآخر في الوصول إليها.

جاء في القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ وهو يحاور المشركين: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، فالنبي ﷺ لم يكن شاكاً وهو الذي جاء بالحق وصدقٍ به، بل أيما ثقة تشبه وثوقه ﷺ بالذي جاء به، لكنه مع يقينه بأنه يملك الحقيقة كل الحقيقة، ويملك الهدى كل الهدى، والآخر لا يملك إلا الضلال، اقتضى منه منهج الحوار، أن يحرك أجواء الحوار في خط الحياد الفكري، واعتبر نفسه لا يملك رأياً مسبقاً، ولم يدع أنه على هدى والآخر على ضلال، بل ساوى بينه وبين الآخر في فرضية الصواب والخطأ وفي فرضية الهدى والضلال، وهذا أرقى أسلوب في الحوار.

وإذا كان أحدث ما وصلت إليه أساليب الحوار هو إقرار القاعدة التي تقول: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"، فإن الطرح القرآني، والنهج الرباني قد تجاوز هذه القاعدة بمسافات كبيرة جداً، وقدم صيغة تمثل القمة في "حيادية الحوار"، فالصيغة القرآنية في منهج الحوار مع الآخر تقول: "رأيي ورأي الآخر يحتمل الخطأ والصواب في درجة واحدة"، فأي حيادية أرقى من هذه الحيادية، وأي نهج حواري أرقى من هذا النهج.

ولا شك أن هذا الأسلوب له معطياته الكبيرة في مسارات الحوار، فهو الذي يجتذب الآخر إلى أجواء الحوار، ويخفف من حساسياته الفكرية أو المذهبية أو السياسية، وهو الذي يفتح الآخر على أفكارنا، ويدفعهم إلى التأمل والتفكير بهدوء وروية.

إن غياب المنهج القرآني في الحوار مع الآخر عقد من حال التواصل معهم، وباتت مشكلة الكثيرين من الناس أنهم لا يتحاورون، وإذا تحاوروا غابت في حواراتهم الأساليب الصحيحة للحوار بحسب ما أكدها منهج القرآن، ودعا إليها الحبيب ﷺ خلال سيرته العملية، وطغى الرفض المطلق للآخر، والطرح المسبق للمسلمات التي لا تقبل النقاش، على غالبية الحوارات.

إن الذي ينبغي أن يقر في هذا المقام، أننا حينما نطرح قضايانا العقدية أو المذهبية أو السياسية التي نؤمن بها للنقاش والحوار لا يعني ذلك بداهة وضرورة أننا تنازلنا عن قناعاتنا التي تشكلت نتيجة بحث ودراسة، ولم تكن مبنية على تعصب وتقليد أعمى، لكنه الأسلوب الأمثل لتحريك الحوار، والطريقة الأنجع لتحقيق أهدافه، وهو في ذات المقام معين على إقامة الحجة تلو الحجة على صحة ما ذهبنا إليه.

فإن قيل: إن القرآن في بعض نصوصه أكد الحدية في الموقف، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ (الكافرون: ١- ٦)، وكما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)، فكيف

توفقون بين هذه الحدية والقطعية الصارمة في الموقف، وبين ما تدعونه من حيادية الموقف والمسامحة.

أجبت بأن المواقع تختلف، وبأن سياق الآيات وسبب النزول يحكم، ففي مواضع الدعوة والحوار تكون الحيادية والمسامحة والمرونة والشفافية والانفتاح سيدة الموقف، لكن لا على طريقة التفريط في القناعات، أو التنازل عن الثوابت، ولكن على طريقة الجدال بالتي هي أحسن.

أما في مواضع الصراع والمواجهة والتحدي والمساومات، فالموقف حزم وحسم، إذ إن المفاصلة بين خط الإيمان والكفر، وبين طريق الاستقامة والانحراف، مسألة ضرورية جدا حينما تتعدد الرؤى والمواقف والقناعات، وحينما تختلط الأوراق، وتتحرك الصراعات، وتنفتح الساحة على الشعارات والانتماءات والأيديولوجيات، فمن الجناية في هذه المواضع أن يعيش أصحاب الاستقامة حالات المجاملة والضعف، أو الصمت والمساومة والتنازل، مهما كانت المبررات التي قد تطرح تحت أي عنوان كضرورات المرحلة، أو فقه الواقع، إذ إن هذا أيضا له ضوابطه وأصوله، إلا أنه رغم ذلك وجدنا السورة انتهت بقول الحق: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، في صورة من إقرار الحيادية المطلقة.

ومع ذلك فإننا لا نرفض المحاورة والمهادنة، أو إن شئت قلت المجاملة والمسايرة، ولكن على شرط الاحتفاظ بالثوابت والمبادئ والقناعات الإسلامية، التي تحفظ الأمة وأفكارها من الذوبان بالآخر، وبمعنى آخر، نحن نريد الممازجة والمجاوزة، لا الاضمحلال والتفرد، وخصوصا عند التقابل بين

أفكار المتحاورين بحيث يصعب الوصول إلى القول الوسط أو إقامة الحجة من طرف على آخر.

وإن أي ممازجة أو مجاوزة على حساب هذه المكونات الإيمانية فهي ممازجة لا تملك مسوغاتها الشرعية، وبعد ذلك تبقى مساحات الحوار والدعوة في حاجة إلى درجة كبيرة من المرونة والرحابة.

الأساس الرابع: حسن الفهم

والمقصود بحسن الفهم في هذا المقام حسن التعرف على حقيقة موقف الطرف الآخر، ولا يكون ذلك من أفواه العامة ولا من الشائعات، ولا من واقع الناس، بل يجب أن يكون من مصادره الموثقة أو من العلماء الثقات المعروفين؛ فكثيراً ما يكون الواقع غير موافق للشرع، وكم من كلام يردده العامة ويشيع بين الناس، وهو في الحقيقة مجرد أكاذيب وإشاعات لا أصل لها.

ومن المهم في هذا الصدد التفريق بين الأصول والفروع، وبين الفرائض والنوافل، وبين المتفق عليه والمختلف فيه، وبين الشائعات والحقائق، وبين ما يلزم الفقه وما يفعله الناس من عند أنفسهم.

وإذا كان طرف هذا الأساس قائماً على تلقي الفكرة من علماء الخصم، وعدم الاعتماد عليها من نقل العوام، فإن طرفها الآخر داع إلى عرضها على قواعد المنهج السليم في التفكير والتحليل، وصولاً إلى الفهم القائم عن علم، لا الإدراك المحكوم بالهوى والتشهي، فيفهم كل طرف من الكلام ما أراد أن يفهمه، لا ما قيل الكلام لأجله ابتداء.

وهذا الأساس مقترن بما ذكر قبل من حسن الظن، فحيث كان الكلام

محتملا للوجوه، وحيث كان اليقين بصفاء سريرة الخصم، كان الواجب والمحتم حمل الكلام على أقرب المفاهيم وخيرها.

وهذا ما يجعلنا نؤكد على وجوب التفرقة بين المتفق عليه والمختلف فيه الذي ينبني على حسن الفهم عن طريق المصادر الموثوق بها بعيداً عن الشائعات وكلام العوام.

الأساس الخامس: تجنب الاستفزاز

فمتى استخدم أحد الفريقين ألقاباً وكلمات وعبارات مثيرةً ومستفزة للطرف الآخر فلن ينجح الحوار أو يثمر طرحه المنشود.

ومن ذلك البعدُ عن الموضوعات ذات الحساسية الخاصة، والتي من شأنها أن تثير المتحاورين، مثل الإساءة إلى الأديان من قبل غير العقلاء، ومما ينبغي الاتفاق عليه:

١- أن الإساءة للرسل والأديان أمر مرفوض ومنبوذ فاعله، وأنه لا يصح تحت أي مسمى من المسميات -وإن تزيّى بعبارات تحمل في ظاهرها الحرية والإنصاف- الإساءة لرسل الله عليهم السلام، أو للأديان التي جاؤوا بها، أو الكتب الإلهية المنزلة عليهم، وإن أي محاولة للإساءة كنشر رسوم مسيئة أو أفلام مشوهة لواقع أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، إنما هو عمل متهم بمحاولة قطع جسور التواصل بين أتباع الأديان، وأن من يقدم عليه عدو للإنسانية والوحدة قبل أن يكون عدوا لدين بعينه، وأن فعله هذا مُجرَّم.

٢- أن مسألة السب عموماً لا تليق بالمسلم، فليس المسلم بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء.

٣- أن يحرص طرفا الحوار على نقل الأقوال التي من شأنها أن تجمع ولا تفرق، وخاصة كلام العقلاء من علماء الفرق المتحاور معها، فهذا من شأنه أن يصفي الأجواء، ويوحد الصفوف.

الأساس السادس: اجتناب تكفير كل من قال: " لا إله إلا الله "

وهذا الأساس وما بعده من الأسس خاص في المحاورة بين المسلمين على اختلافهم.

وقد أنكر علماء الإسلام السابقين كابن الوزير وابن تيمية والهيثمي والنووي وغيرهم، أشد الإنكار، وحذروا أبلغ التحذير من تكفير الناس بذنب أو خطأ.

الأساس السابع: البعد عن شطط الغلاة

ومن المباديء المهمة في الحوار والتقريب بين المسلمين المتحاورين، البعد عن الغلاة والمتنطعين والمتطرفين من كلا الفريقين الذين يثيرون الفتن في أحاديثهم وكتاباتهم، ومن أبرز مظاهر الغلو اتهام الغير بالكفر، وإذا كان هناك متخصصون في تكفير المسلمين جميعا، فإن هناك متخصصين في تكفير فرقة بعينها دون غيرها، وربما أضافوا إليها بعض الطوائف الأخرى.

إن الذي لا يصح أن يكون بين المسلمين وخصوصا في هذا الزمان هو الفرقة والخلاف، وحيث إننا لم نكن نرغب بها بداية، ولكن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر: ١٢)، بل قد وجدنا في هذا الزمان وبذور الخلاف منثورة فيه من قبل دون اختيار منا أو رغبة، فليكن رائدنا في لم شمل المسلمين وتوحيد صفهم كتاب الله أولا، والذي ينادي

فينا بقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

والبعد عن الغلاة والمتطرفين من كل الفرق ثانياً، ولتكن لنا وقفات مع قول الحق تعالى ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

الأساس الثامن: المصارحة بالحكمة

لابد من المصارحة بالمشكلات القائمة والمعلقة والعوائق المانعة من التواصل، ومحاولة التغلب، عليها على أن يكون ذلك كله بالحكمة والتدرج والتعاون المفروض شرعاً بين المسلمين بعضهم وبعض.

ومن ذلك مراعاة حقوق الأقليات المذهبية أو الدينية بين الأكثريات في ذات البلد، كما هو حادث بين الأقباط والمسلمين في مصر.

فينبغي أن نقرر هنا ضرورة مصارحة بعضنا بعضاً بمثل هذه الأمور في جو من الإخاء، والإخلاص في طلب الحق، والتجرد من أجل الوصول إلى كلمة سواء.

الأساس التاسع: الحذر من دسائس الأعداء

ومن المباديء المهمة في الحوار والتقريب بين المذاهب والأديان أن نَحْذر من مخططات أعداء الرسل والأديان، بل أعداء الإنسانية، ودسائسهم التي يريدون بها أن يمزقوا شمل الأمة ويفرقوا وحدتها.

كما ينبغي علينا أن نتيقظ لما يمارس حولنا من ممارسات خاطئة، ترمي فيما ترمي إليه إلى نثر بذور الخلاف بين صفوف الفرقاء، وتقطيع أواصر التواصل بينهم، وهدم جسور الثقة والاحترام، تحقيقاً لمطامع شخصية، أو تلبية لنداء تطرف فكري تغذى بالحقد واستفاد من الخلاف، فكان التواصل بين الفرقاء معكراً له مذهباً لصفوه.

إن المطلوب الآن من المتحاورين أن يكونوا متيقظين لتلك الدسائس وصولاً إلى نقاط مشتركة تكون انطلاقة لهم ومرجعاً عند الاختلاف.

كما أن العقلاء منهم مطالبون بتفويت تلك الفرصة على أعداء الأديان والإنسانية، تحقيقاً لمصلحة الأمة والإنسانية.

ضوابط الحوار

لكل حوار ضوابط تحكم مساراته، وتوجه تلاقح الأفكار خلاله، وضوابط الحوار فضلاً عن كونها آداباً وأخلاقاً هي جزء رئيسي ومؤثر في فعالية أي عمل يُبْنى على الحوار، ذلك أن أي عمل في بدايته هو مشروع في محتوى بعض الكلمات والأفكار التي ينميها الحوار ويخصبها، ويبعث فيها روح العمل، ولا شك أن ضوابط الحوار إنما تقوم على أصول رسخها سلفنا من علماء ضربوا أروع الأمثلة للحوار الناجع في تمحيص الآراء المتباينة، وتجلية الإشكاليات المتوقعة، دون تَحَول الحوار إلى مهاترات يضيع معها الود لتحل محله الجفوة والقطيعة.

ومن هذه الضوابط(١):

١- الإنصات والاستماع:

وحقيقة الحوار في الإنصات والاستماع، فالحوار فن السماع للآخر، وعدم الرغبة في الكلام بدلاً منه، إذ إن هذه الرغبة تزهدنا فيما يقوله مَن نتحاور معه، ويحرمنا من تَدبّر قوله الذي لا يتحقق إلا بالسماع الكامل لهذا القول حتى آخره.

كما أن السماع الكامل للآخر مشعر بالاهتمام فيما يقول، ومضف على التحاور جدية، بعدم تعنت كل متفارق لرأيه، وهو في ذات الوقت دليل على وثوق المحاور فيما عنده.

قال عبد الله بن المبارك في الإمام مالك ممتدحاً فيه هذه الخصلة(٢):

---

(١) انظر: مجلة البيان، عدد ٨٧، مقال محمد محمد بدري.

(٢) العقد الفريد: ١/ ١٦١ ,

صَمُوت إذا ما الصَّمْتُ زَيَنَ أَهلَه وفَتَاقُ أبكار الكلام المُخَتَّم
وَعَى ما وَعَى القرانُ من كلِّ حكمة وسيطَت له الآدابُ باللَّحْم والدَّم

وتأمل معي هذا الحوار بين عتبة بن ربيعة والنبيﷺ .

ذكر ابن هشام في سيره عن ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة -وَكَانَ سَيِّدًا- قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْش، وَرَسُولُ اللَّه ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِد وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش، أَلاَ أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيه أَيَّهَا شَاءَ وَيَكُفّ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ.

فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيد، قُمْ إِلَيْه فَكَلِّمْهُ.

فَقَامَ إِلَيْه عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّك مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَة فِي الْعَشِيرَة وَالْمَكَان فِي النَّسَب، وَإِنَّك قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَك بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْت بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفَّهْت بِهِ أَحْلاَمَهُمْ وَعِبْت بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفَّرْت بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّك تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ: قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيد أَسْمَعْ.

قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْت إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَك مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْت تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاك عَلَيْنَا، حَتَّى لاَ نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك، وَإِنْ كُنْت تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا؛ وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيك رِئْيًا تَرَاهُ لاَ تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِك، طَلَبْنَا لَك الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نَبْرِئَك مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ. -

أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ-.

حَتّى إذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللّه ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ.

قَالَ: أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَاسْمَعْ مِنّي.

قَالَ: أَفْعَلُ.

فَقَالَ رسول الله ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ (فصلت: ١-٥)، ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّه ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْه.

فَلَمّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْه خَلْفَ ظَهْرِه مُعْتَمِداً عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمّ انْتَهَى رَسُولُ اللّه ﷺ إِلَى السّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ؛ ثُمّ قَالَ قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد مَا سَمِعْتَ فَأَنْت وَذَاك(١).

فانظر إلى النبي ﷺ كيف يستمع إلى عتبة وهو يعرض عليه هذه الخواطر التي تثير الاشمئزاز مقارنة بما يشغل النبي من عظائم الأمور، ومع ذلك يتلقاها النبي حليماً، ويستمع إليه دون مقاطعة عتبة ويردد في نهايتها: أفرغت يا أبا الوليد؟. فيقول: نعم، فيقول رسول الله ﷺ: فاستمع مني، بل لا يبدأ النبي ﷺ كلامه حتى يقول له عتبة: افعل. فيبدأ النبي ﷺ في تلاوة

(١) السيرة النبوية: ١/ ٢٩٢ .

قول ربه في ثقة وطمأنينة!!

إن السماع الكامل للآخر، وإعطاءه الفرصة حتى يتم كلامه، مع استيضاح أي غموض فيما يعرضه من أفكار، إن كل ذلك لا بد أن يكون هو السمة المميزة لكل حواراتنا، فإذا تبين لنا خطأ الآخر، فإن السماع الكامل له وعدم مقاطعته هو المقدمة الصحيحة لرجوعه عن الخطأ مهما كان عناده وغلظته؛ فإن أشد الناس جفافاً في الطبع وغلظة في القول لا يملك إلا أن يلين وأن يتأثر إزاء مستمع صبور عطوف يلوذ بالصمت إذا أخذ محدثه الغضب(١).

قال أبو العتاهية(٢):

إذا كنت عن أن تحسن الصمت عاجزاً فأنت عن الإبلاغ في القول أعجز

يخوض أناس في المقال ليوجزوا وللصمت عن بعض المقالات أوجز

وقال أيضاً:

قد أفلح الساكت الصموت كلام راعي الكلام قوت

ما كل نطق له جواب جواب ما تكره السكوت

٢- تجريد الأفكار:

هدف الحوار هو الاستفادة من الأفكار وليس تدمير الأشخاص، ولذلك؛ فإن من أهم ضوابط الحوار: التركيز على فض الاشتباكات الفكرية دون التعرض السلبي للأشخاص بتشويه أو تجهيل، فلا خلاف مطلقاً بين

(١) كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٩٢ .
(٢) الموشى: ما يجب على الأدباء.

أشخاص المتحاورين، وإنما بين أفكارهم، والفكرة الحسنة تُمْتدح بغض النظر عن قائلها، والفكرة الخطأ تُراَجع دون تسفيه قائلها أو التهكم منه، فالنظر دائماً إلى الآخر في ضوء ما قيل، لا من قال(١)، مع احترام أهل العلم، وحفظ مكانتهم ومراتبهم، فلا نؤثمهم مطلقاً ولا نعصمهم مطلقاً، ولا نقبل كل أقوالهم ولا نُهْدرها كلها، وإنما ننتفع بأفكارهم ما دامت حقاً، ولا نعتقد فيهم العصمة من الخطأ، ونرى أن الآخر قد يمتلك الحق أو أنه يكون هو الراجح عنده، وأن ما عندنا يحتمل الخطأ أو أن يكون هو المرجوح.

ولا شك أن التحاور ضمن هذا المبدأ، أعني مبدأ افتراض المخالفة؛ هو المدخل الذي يضع الآخر في أول الطريق الصحيح للتفكير، لأنه يرى أن من يحاوره يضع نفسه معه في موضع المجادلة المشتركة لمعرفة الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، هكذا في هدوء من يبتغي للآخر الإرشاد وليس الإفحام والإذلال، وفي ثقة من أخلص للحق المجرد فصح انقياده له، ولم يهتم بمن قاله من البشر، وإنما كان جُل اهتمامه بالقول في ذاته وتمييز الحسن منه والأحسن، ثم اتباع الأحسن، فكان من أصحاب البشرى بالنجاح وتحقيق الأهداف في الدنيا، والنعيم في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٧ - ١٨).

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٥٤٥ .

دخل رجلٌ على عبد الملك بن مَرْوان، وكان لا يَسأله عن شيء إلاّ وَجد عنده منه علماً، فقال لهُ: أَنىَ لك هذا؟ فقال: لم أَمْنع قَطّ يا أَميرَ المؤمنين علماً أفيده، ولم أَحتقر علماً أَستفيده، وكنتُ إذَا لَقيت الرَّجُلَ أَخذتُ منه وأَعطيتُه(١).

وتلك هي شيمة من أراد الحق، الأخذ والإعطاء.

وذلكم يرشدنا إلى ضابط آخر وهو غاية الحوار، وسنفرغ له مكاناً بإذن الله تعالى.

٣- تـرك المراء:

قد يُخْفي الحوار في نفس من يمارسه حباً خفياً للتميز على الآخر، ولا يمكن اكتشاف هذه العورة النفسية إلا بأن يترك المحاور المراء والجدل، ويلتزم بيان الحق بالحجج والبراهين.

وقد وعد النبي ﷺ تارك المراء إن كان محقاً ببيت في الجنة، فعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ (أَنَا زَعِيمٌ ببَيْت في رَبَض الجَنَّة لَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحقًّا، وَبَبَيْت في وَسَط الجَنَّة لَمَنْ تَرَكَ الْكَذبَ وَإِنْ كَانَ مَازحًا وَببَيْت في أَعْلَى الجَنَّة لَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)(٢).

فرغم الاعتقاد بملكية الحق، لا يكون إثباته عن طريق المراء والجدل، وإنما عبر الطرق والمسارات الشرعية التي تصل بسالكها إلى بيان الحق، وعدم الانتقال بأي حال من الأحوال من شواهد الأدلة إلى دوافع الآخر، أو من

(١) العقد الفريد: ١/ ١٦١ .

(٢) أخرجه أبو داود برقم: (٤١٦٧)، وفي ذات المعنى عن أنس بن مالك عند الترمذي برقم: (١٩١٦)، وابن ماجه برقم: (٥٠)، وهو عند النسائي عن فضالة بن عبيد برقم: (٣٠٨٢).

إقامة الحجج للتدليل على صحة ما نراه ونعتقده إلى إثارة الجدل للتدليل على خطأ الآخر وخبث بواعثه.

فنبل الوسيلة في شرعنا من نبل الغاية، والغاية لا تبرر الوسيلة كما هو الحال عند النفعيين أو الرأسماليين أو البرغماتيين.

فإن كان الذي اعتقدناه حقا، فإننا ينبغي أن نسلك في تحقيقه طريقاً صحيحاً، لا مراء يحملنا إلى شفير ضياع الحق أو يدور بحوارنا في حلقة مفرغة، ويتفرع به إلى مضايق ومتاهات تتمزق فيها الأفكار، ويُقْتل التفكر والتدبر على مذابح المراء والجدل العقيم!!.

إن المراء يغلق باب الحوار ويلغيه ، لأنه يدفع طرفي الحوار إلى التصور الخاطيء؛ بأن حوارهما هو مباراة لا تكون نتيجتها إلا قاتل أو مقتول، فلا يبحث كل منهما عن حقائق أو أدلة، وإنما يكون بحثه وجهده في محاولة إغراق الآخر في طوفان من الكلام الذي يُضيع الوقت والجهد في غير فائدة، ويوغر الصدور، ويكرس الفرقة.

والمراء مخالف للمجادلة الحسنة التي أمر الله بها النبي الكريم، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل: ١٢٥).

وقد صح عن النبي ﷺ أن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ"(١).

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٦٨٦).

فأضحت المجادلة الحسنة أمراً من الله للمؤمنين، وأصبح التزامها للمحاورين واجبا، وصار المراء إثماً منهياً عنه.

أخرج الترمذي عن كعب بن مالك قوله: "سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ الله النَّارَ"(١).

٤- تغافر لا تنافر:

الحوار هو لون من ألوان التشاور حول بعض الموضوعات والأفكار، ومن ثم: فهو جلسة تناصح وتغافر وليس جلسة تصارع وتنافر، فمع قبول رأي الآخر أو رفضه تبقى طهارة القلب وصفاء السريرة نحوه، مع قبول معذرته والتغافر عن خطئه إن وقع، بل والحرص على أن يخرج الحق على لسانه.

رُوي أن الإمام أبا حنيفة النعمان (رأى ولده حماداً يناظر في المسجد فنهاه، فقال له ولده: أما كنت تناظر؟ قال: بلى، ولكن كنا كأن على رؤوسنا الطير من أن يخرج الباطل على لسان الخصم، بل كنا نود أن يخرج الحق على لسانه فنتبعه، فإذا كنتم كذلك فافعلوا(٢).

وهذه هي سيماء سلفنا الصالح في حواراتهم، فقد ذُكر عن حاتم الأصم أنه قال: "معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي، قالوا: وما هي؟

قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه".

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: (٢٥٧٨)، وابن ماجة بالأرقام: (٢٤٩)، (٢٥٥)، (٢٥٦).

(٢) الإمام أبو حنيفة، لفضيلة الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى.

فبلغ ذلك الإمام أحمد رحمه الله، فقال: سبحان الله، ما كان أعقله من رجل[١].

نعم، ما أعقله من رجل يحب أن يُظْهر الله الحق على لسان أخيه، ويحاول رؤية الحق من أي وعاء خرج، ومن أي جهة سطع.

إن من طلب الحق فأخطأه لا يمكن تسويته بمن طلب الباطل فأدركه، فطالب الحق وإن أخطأ نتجاوز عن خطئه، ونغفر له تجاوزه، وإن كان ثمة عتاب فبالمودة والإخاء والقول الحسن.

ومما جاء في سيرة علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أنه كان بينه وبين ابن عمه حسن شيء، فما ترك حسن شيئاً إلا قاله، وعلي ساكت، فذهب حسن، فلما كان الليل، أتاه علي فقال: يا ابن عمي إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك، والسلام عليكم.

فالتزمه حسن، وبكى حتى رثي له[٢].

إن الحوار جلسة بدء علاقة يظللها الحب والتغافر، ولسان حال المتحاورين:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

وقالوا: لا يكون العالم عالماً، حتى تكونَ فيه ثلاثُ خصال: لا يَحْتَقر مَن دونه، ولا يَحْسد مَن فوقه، ولا يأخذ على العِلم ثَمَناً[٣].

(١) الرد على المخالف: (٦٠).
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٧.
(٣) العقد الفريد: ١/ ١٦١.

٥- الصدق والوضوح:

الصدق مع كونه ضابطاً من ضوابط الحوار، هو خُلُق نبيل لا خيار للمسلم في التحلي به، والوضوح في الفكرة هو وسيلة قبولها من الطرف الآخر، والوضوح في المواقف له أكبر الأثر في تصفية القلوب وإعادة الود.

ومن هنا كان الصدق والوضوح هما طريق التآلف وحصول البركة، قال رسول الله ﷺ: "الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"(١).

وكما أن البيع المبني على الصدق والوضوح هو بيع مليء بالبركة، كذلك الحوار القائم على الصدق والوضوح هو حوار مبارك ييسر الله تعاون أطرافه على البر والتقوى، ويبارك جهودهم المتعاونة على نصرة الحق.

ومن هنا وجب علينا في كل حواراتنا أن نتجنب الكلمات الغامضة التي تؤدي إلى سوء الفهم، ونتجنب أساليب المغالطات والدفاع عن الأوضاع الخاطئة التي تؤدي إلى إثارة الحقد، وإيغار الصدور والقلوب ، وذهاب الود بين طرفي الحوار ، ومن ثم تكون النتيجة هي فشل الحوار في تحقيق أهدافه.

٦- العلم والعدل:

الحوار الناجح هو حوار يضبط العلم مساره، ويوجه العدل موقف كل طرف فيه تجاه الآخر.

فأما العلم، فإنه لا يستقيم حوار بدونه، بل في غيابه يصبح ضرر الحوار أكثر من نفعه، لأن جهود المتحاورين في هذه الحال تذهب سدى وتضيع بلا ثمرة تذكر.

أخرج الإمام أحمد في مسنده أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري برقم: (١٩٣٧).

بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلْ الله كَذَا وكَذَا؟ وقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلْ الله كَذَا وكَذَا؟ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسولُ الله ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِيء في وَجْهه حَبُّ الرُّمَّان، فَقَالَ: "بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَه بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، إِنَّمَا ضَلَّتْ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ، انْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله في التعليق على هذا الحديث: "وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه"(٢).

وإذا كان أحد طرف الحوار جاهلاً في محله - أي محل الحوار- فتلك مصيبة ابتلي بها الطرف الآخر، وقد نقل عن الشافعي: "ما حاججت عالماً إلا غلبته، وما حاجني جاهل إلا غلبني".

ومما جاء في تحامل الجاهل على العالم ما ذكره أهل الأثر: "وَيْل لعالم أمْرٍ من جاهله".

وقالوا: إذا أردتَ أن تُفْحم عالماً فأحْضره جاهلاً، وقالوا: لا تُناظر جاهلاً.

وقالوا أيضاً: لا تُناظر جاهلاً ولا لجوجاً، فإنه يجعل المُناظرة ذريعة إلى التعلّم بغير شكر.

ومما جاء في الأثر: ارحموا عزيزاً ذلّ، ارحموا غنيّاً افتقر، ارحموا عالماً ضاع بين جُهّال.

وجاء كَيْسان إلى الخليل بن أَحمد يَسأله عن شيء، ففكَّر فيه الخليلُ

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم: (٦٥٥٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٣ .

ليُجيبه، فلما استفتح الكلام؟ قال له: لا أَدري ما تقول؛ فأنشأ الخليل يقول:

لو كنتَ تَعْلم ما أقولُ عذرتني أو كنتُ أَجْهل ما تقولُ عذلْتُكا
لكن جَهِلْت مَقالتي فعَذلْتَني وعلمتُ أنك جاهل فعَذَرْتُكا

وقال حَبيب(١):

وعاذل عذلتُه في عَذْله فظَنَّ أنيِّ جاهلٌ من جَهْله
ما غبن المَغْبُونَ مثل عقْله مَن لكَ يوماً بأخيك كُلِّه

وأما العدل فهو الطريق إلى اعتدال أخلاق المتحاورين بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو الحامل لهم على قبول الحق من الخصم، بل من العدو المبين.

أخرج الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بحفْظ زَكَاة رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آت فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَام فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لقَوْلُ رَسُول الله ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ؛ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَام فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ؛ فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ،

(١) هذا وما قبله مذكور في العقد الفريد: ١/ ١٦٢ .

فَجَاءَ يَحْثو منْ الطَّعَام، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله وَهَذَا آخِرُ ثَلَاث مرَّات أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ.

قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ الله بهَا، قُلْتُ مَا هُوَ؟ قَالَ إذَا أَوَيْتَ إِلَى فرَاشك فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ منْ الله حَافظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ؛ فَقَالَ لي رَسُولُ الله ﷺ :مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي الله بهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: مَا هيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لي: إذَا أَوَيْتَ إِلَى فرَاشكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ منْ أَوَّلهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ منْ الله حَافظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ.

تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطبُ مُنْذُ ثَلاَث لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ" (١).

فهذا رسول الله ﷺ لا يمتنع من قبول الحق من أعدى أعدائه، بل ممن يعلم أنه كثير الكذب، وذاك غاية العدل.

إن طريق الوصول إلى الحق عبر الحوار هو الاتصاف بالعدل والعلم وحسن القصد، وأما الجهل والظلم وسوء القصد فهو الطريق إلى التنازع والفرقة والقطيعة بين أهل المنهج الواحد، بل بين ذوي الرحم، ولا تزال قلة الإنصاف قاطعةً بين الأنام وإن كانوا ذوي رحم.

---

(١) أخرجه البخاري تحت باب "إِذَا وَكَّلَ رَجُلاً فَتَرَكَ الْوَكِيلُ شَيْئًا فَأَجَازَهُ الْمُوَكِّلُ فَهُوَ جَائِزٌ" قبل حديث رقم: (٢١٤٥).

٧- التحاور العملي:

المتأمل في حواراتنا يجد أنها تحوي في أكثرها هوة كبيرة بين ما نتحاور له وما يترتب عليه من أعمال في الواقع، وهذه مقتلة، إذ أن الحوار ينبغي أن يكون فيما يترتب عليه العمل، وفيما ترجى من ورائه مصلحة أو منفعة، أما عدا ذلك فالخوض فيه خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي في الكتاب أو السنة أو عمل سلف الأمة.

جاء عند ابن ماجة أن رسول الله ﷺ خرج عَلَى أَصْحَابه وَهُمْ يَخْتَصمُونَ في الْقَدَر، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ في وَجْهه حَبُّ الرُّمَّان منْ الْغَضَب، فَقَالَ: "بهَذَا أُمرْتُمْ أَوْ لهَذَا خُلقْتُمْ تَضْربُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ ببَعْض بهَذَا هَلَكَتْ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ".

قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرو: "مَا غَبَطْتُ نَفْسي بمَجْلس تَخَلَّفْتُ فيه عَنْ رَسول الله ﷺ مَا غَبَطْتُ نَفْسي بذَلكَ الْمَجْلس وَتَخَلُّفي عَنْهُ"(١).

وإنما كان غضب الحبيب ﷺ لتشاور المسلمين فيما لا طائل تحته، أو فيما يبث بذار الفرقة ولا ينبني عليه عمل.

وقد سأل صحابة رسول الله ﷺ عن الهلال يتغير من أول الشهر لآخره، فجاء جواب سؤالهم في القرآن على طريقة جواب الحكيم(٢)، التفاتاً لما يعنيهم من مسائل الدين والدنيا، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم: (٨٢).

(٢) جواب الحكيم: هو أن يكون سؤال السائل عن أمر وتكون الإجابة عن أمر آخر مع ذلك الأمر، أو صرف الإجابة لأمر آخر بالكلية حملا للسائل لما فيه خير له، كما في إجابة رسول الله [الصحابة لما سؤل عن طهورية ماء البحر فأجاب بقوله: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"، ولم يرد ذكر الميتة أصلاً في السؤال.

مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩).

حيث جاء الجواب بما تعلق به العمل، مع الإعراض التام عما قصده السائل من السؤال عن الهلال من كونه يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط، ثم يمتلئ حتى يصير بدراً، ثم يعود إلى حالته الأولى.

وعند البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: "بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنْ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ" (١).

وفي هذا دليل على صرف النبي ﷺ الإجابة إلى ما فيه خير للسائل، وما يبنى عليه عمل.

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قوله: " خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه، قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليما ولا سفيها فإن الحليم يقليك، وإن السفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا تغيب عنك مما تحب أن يذكرك به، وأعفه عما تحب أن يعفيك منه، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام " (١).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٦٢٠)، ومسلم برقم: (٤٧٧٨)، وانظر الموافقات: ١/ ٤٦ .

ولقد كان لنا في سلف الأمة خير مثل لانصراف هممهم عما لا طائل تحته، فقد جاء في الخبر عن عمر بن الخطاب مع صبيغ بن عسل أنه كان يسأل عن متشابه القرآن، فقال عمر: سبيل محدثة، أي: بدعة جديدة، ثم أرسل إلى رطائب من جريدة نخل فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة أي: قرحة ثم تركه حتى برئ ثم عاد له، ثم تركه حتى برئ فدعا به ليعود، فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي؛ فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني، فقد والله برئت، فأذن له عمر أن يذهب إلى أرضه.

إن تحاورنا يجب أن يكون هو الخطوة التمهيدية الأولى في طريق أعمالنا المشتركة التي نتعاون على إتمامها، ولذلك: فإنه من الضروري أن نتعرف قبل التحاور على الأهداف العملية للحوار، ونتبين ما هي الدوّامات الفكرية الطارئة والمنعطفات النظرية العارضة التي قد تلفتنا عن أهدافنا العملية لتنحرف بحواراتنا إلى أمور نظرية شكلية ليس لها أدنى تأثير في مسيرة العمل، ولا يترتب عليها إلا استنفاذ طاقاتنا في غير طائل وبغير ثمرة.

٨- الحجة الرأسية:

الحوار الناجح هو حوار يخلو من الإطالة الزائدة عن الحد، التي تُحَوّل الحوار إلى خطبة يتشدق فيها كل طرف من أطراف الحوار ويتفاصح بكثرة الكلام، بل وغرابته أحياناً، وهو ما كرهه رسول الله ﷺ بقوله: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ

(١) انظر كتاب الصمت، أثر رقم: (١١٤).

إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟، قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ"(١).

والثرثار: كثير الكلام تكلفاً.

والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه.

والمتفيهق: أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فيه بالكلام، ويتوسع فيه، ويغرب به تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة على غيره(٢).

إن الإطالة والتكرار والإسهاب وهو ما نطلق عليه الحجة الأفقية لا ينتج عنه إلا دفن الفكرة الرئيسية للحوار وسط هذا الكم الكبير من الكلام، ومن ثم: عدم قدرة الآخر على اكتشاف ما نقصده فضلاً عن فهمه وتدبره ؟ !

وإذن : فالمحاور العاقل هو من يحاول الوصول إلى هدف الحوار من أقرب طريق، ولا يضيع وقته ووقت الآخر في تكرار الكلام والإسهاب في المقدمات التي لا فائدة فيها، بل يقتصر في الألفاظ والكلمات على قدر الحاجة ويوضح فكرته بأقرب عبارة وأوجز لفظ، وهو ما نطلق عليه الحجة الرأسية حيث يذكر المحاور فكرته الرئيسية، ثم ينتقل بعد ذلك إلى تدعيمها بالأدلة، في إجمال غير مخل، وتفصيل غير ممل.

إن من فقه الحوار وذكاء المتحاورين: أن يتحرزا عن إطالة الكلام في غير

---

(١) أخرجه الترمذي برقم : (١٩٤١).

(٢) رياض الصالحين: ٢٨٩ .

فائدة، وعن اختصاره اختصاراً يخل بفهم المقصود منه(١)، وأن يحققا التوازن الدقيق بين جفاف الحوار بسبب قلة الأدلة أو غموضها، وبين غرق الحوار بسبب الإسهاب والتكرار غير المفيد.

٩- نبل غايات الحوار:

من ضوابط الحوار في الإسلام أن يبتعد كل البعد عن الهوى، فإن اتباع الأهواء مفسدة ومضيعة، بل ينبغي أن يقدم الحوار على أساس من إعلان الحق وتوضيحه، بدافع من الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ، في إحقاق الحق وترسيخ أركانه، وعندئذ يعلم أن الحوار في الإسلام لغاية، و ليس لاتباع هوى وتحقيق ما يتوهم من مغالبة وادعاء نصر على الخصم.

ومن يتتبع الحوار في القرآن الكريم يدرك هذا الأمر، ويعلم كيف تكون الحجة، وكيف يقوم الدليل في القضية التي يراد إبلاغها وإحقاقها.

ويعلم أن الإسلام إذا كان قد أقر منهج الحوار، فإنه ينهى عن الحوار المبني على التمسك بالرأي مسبقاً، إذ إن ذلك أمارة على تغييب الحق وغمره في الهوى المتبع، وهذه مفسدة تهدر غاية الحوار وتذهب بحكمته من الوصول إلى الحق وإحقاقه.

قال ﷺ في بيان معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥)، عندما سأله أبو ثعلبة الخشني عن معناها: "بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ -يَعْنِي بِنَفْسِكَ- وَدَعْ عَنْكَ

(١) آداب البحث والمناظرة: ٧٦ .

الْعَوَامَّ، فَإِنَّ منْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فيه مثْلُ قَبْضٍ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مثْلَ عَمَلِهِ"(١).

ذلكم لأن الكف عن محاورة هؤلاء حفظ للنفس عن الوقوع في حبائل من يكتفى معهم بالبيان الذي جاء به القرآن بلاغاً، فمثلهم مكتف بما عنده، غير قابل للحق، وعندئذ تكون أي محاولة للحوار ضرب فارس في غير ميدان، لتخلف حكمة الحوار ومصلحته.

١٠ - خلاف بلا اختلاف

مسألة الاختلاف في التوجهات والآراء مسألة قديمة، ولست هنا بصدد حل خلاف عمره من عمر دولة الإسلام بعد النبي ﷺ، لكن حاصل ما أريده في هذه العجالة بيان أن للمتحاورين في شتى المواضيع مذاهب شتى، ومما لا شك فيه أن الراجح منها واحد، وليس هذا عيباً في صاحب الرأي المرجوح، فالكل أراد إحقاق الحق، والكل قصد في مذهبه من الاستدلال وإقامة البراهين مسلكاً خاصاً، بنى فيه الأدلة النقلية والعقلية على صحة ما ذهب إليه، وخطأ قول الآخرين.

وهذا حق لا إشكال فيه، لكن الذي لم نود وقوعه بين المتحاورين، هو انتقال الخلاف من حيز الأقوال إلى حيز الأشخاص، ومن رد الدليل بالدليل إلى التسفيه والعيب على الآخرين مذاهبهم، بل إن بعضهم جاوز الحد في ذلك فرمى الآخرين بما لا ينبغي.

فإن كان الله عز وجل قد رضي من المتحاورين ما ذهبا إليه في الحق الذي

(١) أخرجه الترمذي برقم: (٣٧٧٨).

أرادوه، فإنه لا يرضى منهما الفرقة والخلاف أبدا، كيف وهو أرحم بنا من أنفسنا، وهو العالم أن الفرقة والخلاف لا تأتي بخير، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقد ورد عن السلف قولهم: "نعمل فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه"، فما أحوج الأمة الإسلامية إلى هذا المعنى هذه الأيام، وما أحوجها أن يكون قائدهم في الوحدة ولم الشمل هم علماء الإسلام الربانيون المتحققون بفهم الآخر وقبول شخصه على خلافهم معه في مذهبه الذي ذهب إليه.

وما أحرى الخائضين في هذا الميدان بأن يتحققوا قول الشافعي: "كلامي صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيري خطأ يحتمل الصواب".

ويا ليتهم مذ اختلفوا لم يوغلوا؛ ولم يجعلوا الاختلاف سببا للتفرقة، وهذا قرآنهم يهتف من فوق رؤوسهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، ونبيهم ﷺ يقول: "اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ"(١)، أي إذا شعرتم بأن النظر في الآيات, وتقليب وجوه الاحتمال في معانيها ,يؤثر في رابطتكم الدينية فدعوا النظر بالكلية؛ خشية التفرقة.

ولعمري إن انصراف بعض المسلمين عن العلم النافع؛ وإعراضهم عن النظر فيما يهذب أخلاقهم؛ ويرقي اجتماعهم ,ويشد عرى الإخاء بينهم، هو

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٧٣) ومسلم برقم (٤٨١٩).

الذي جعلهم يوغلون في مثل هذه المسائل؛ ويفرغون للخوض والنزاع فيها.

وبذلك تقلص ظل العمل من ديارهم؛ وقام مقامه الجدل في مجالسهم وأسفارهم؛ حتى أوشكوا أن ينطبق عليهم حديث: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه؛ إلا أوتوا الجدل وحرموا العمل"(١).

على أن خوض علماء المسلمين في مسائل الخلاف كان بحثاً عن حق، وإحقاقاً لوجه من الصواب رأوه، وإثباتاً لمذهب من العلم سلكوه، ولم يكن الغرض من اختلافهم ألبته الفرقة والخلاف، فرأيناهم يرجع واحدهم عن رأيه إن بدا له الدليل، غير متعصب لفكرة أو متعنت لمذهب أو خائض لجاج الهوى في تحسين القبيح وتقبيح الحسن.

نسأل المولى العلي القدير، أن يوحد صف المسلمين، ويجمع على الخير كلمتهم، ويلم بحكمته شملهم، ويغفر لهم ما كان منهم من فرقة وخلاف، وأن يكون ذلك خطوة في توحيد الناس على كلمة سواء.

١١- أن يكون محل الحوار صحيحاً:

وهذه جوهر القصيد، ولب الضوابط، وإنما أخرت ذكرها مع أن حقها الصدارة، إيذاناً بأهميتها، فشأن العقل أن يعلق فيه ما ختم به الحديث، وقد قالوا قديماً: الأعمال بخواتيمها، إيذانا بأهمية ما يختم به.

ووجه أهميتها كامن في أن ليس كل أمر صالحاً أو قابلاً للحوار، وبيانه أن

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣١٧٦) وابن ماجة باب اجتناب البدع والجدل، وفي مسند أحمد برقم (٢١١٤٣) ورقم (٢١١٧٩)، وليس في أي منها زيادة: "وحرموا العمل".

ذلك يختلف باختلاف المتحاورين من جهة، وباختلاف غرض الحوار من جهة أخرى.

فلا يقبل أبدا مثلاً أن تكون المحرمات قطعاً كالخمر والقمار محلاً للحوار بين طرفين مسلمين باعتبار ما قد يجنى من منافع متوهمة حين السماح بهما، وفي ذات الوقت يمكن أن يكون ذلك مع غير المسلمين باعتبار النظر إلى المصالح والمفاسد المتأتية من السماح أو المنع.

وبمعنى آخر، لا يصح وضع المقطوع بحكمه شرعاً محلاً للحوار بين طرفين مسلمين، وكذلك لا يصح أن تكون المسائل الفرعية والأحكام التفصيلية محلا للحوار بين طرفين أحدهما مسلم والآخر لا، إذ إن اختلاف المسلم مع غيره بالأصول التي تنبني عليها تلك الفروع.

وعلى ذلك فمحل الحوار الصحيح ينبغي أن يكون في أصول العقائد بين المسلمين وغيرهم، وفي فروعها -أعني العقائد- بين الفرق الإسلامية، وفي المباحات ومختلف الأفكار العملية أو المصلحية أو التنظيمية المتناولة لمختلف شؤون الناس، بين كافة الفرقاء المسلمين.

الخـاتمة

وبعد هذا الاستعراض للحوار من حيث منهجه وضوابطه وأساسياته، أقول:

إن الحوار المفتوح هو أداة لكشف الحقائق والآراء ومواطن الخلاف في وجهات النظر المتباينة، وفرصه للإجابة عن التساؤلات والاستفسارات التي تقبع في العقول والنفوس، وخلال الحوار تُنمى العقول ويكتمل نضجها وتصبح مهيأة لتبادل وجهات النظر برحابة صدر وعمق فكر، وعذر للمخالف فيما يقول.

كما أن الحوار القائم على أساس من المنهجية والحياد يساعد في اتخاذ القرار الصائب في أغلب الأحيان، وهو أداة لكشف الحق من الباطل وتفنيد الصواب من الخطأ، وهذا يدلل على كونه قيمة حضارية لا غنى عنها.

إن ما نسعى للوصول إليه هو تهيأة أرضية للحوار المفتوح، الذي يتميز بآداب المتحاورين وحفظ سلوكياتهم، وضبط النفس والتوازن في الأحاسيس والمشاعر كافة، مع الانفتاح على الطرف الآخر في إطار من الواجبات اللازم التقيد بها؛ كاحترام مشاعر الخصم ومعتقداته، ومحاورته بالحكمة والموعظة الحسنة، ودفعه عن رأيه بالتي هي أحسن ,مع الحرص على تجنب الأساليب السلبية ,كالتحريض والتشغيب وإثارة الفوضى، والتحامل والتشنج والتعصب الأعمى، أو استخدام أسلوب المغالطة والانكماش والتهرب والاستهزاء والسخرية، فهي مرفوضة أيضا في الحوار المنشود.

أسأل الله أن أكون وفقت لعرض المادة فيه بالصورة اللائقة، فإن أصبت فبفضل الله ومنه، وإن أخطأت فبجهل العبد وضعفه، والله يغفر ما كان لنا من الزلل والخطأ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المـراجـــع

١- القرآن الكريم
٢-صحيح الإمام البخاري.
٣-صحيح الإمام مسلم.
٤- جامع الترمذي.
٥-سنن أبي داود.
٦-سنن النسائي.
٧-سنن ابن ماجه.
٨- مسند الإمام أحمد.
٩- أبو حنيفة - محمد أبو زهرة.
١٠- اقتضاء الصراط المستقيم - ابن تيمية.
١١-آداب البحث والمناظرة - الشنقيطي.
١٢-الرد على المخالف - بكر أبو زيد.
١٣-رياض الصالحين - النووي.
١٤- السيرة النبوية لابن هشام.
١٥-سير أعلام النبلاء - الذهبي.
١٦-الصمت لابن أبي الدنيا.
١٧-العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي.
١٨- كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس - ديل كارنيجي.
١٩-مدارج السالكين - ابن القيم.
٢٠-الموافقات - الشاطبي.
٢١- مباديء في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية - يوسف القرضاوي.
٢٢-الموشى - أبو الطيب الوشاء.
٢٣- مجلة البيان عدد ٨٧ - مقال الدكتور محمد محمد بدري.